

## القابلية للاستعمار عند مالك بن نبي و مفهوم الذات

د. طعبة سعاد أ. فتوح خالد

جامعة الجلفة

الملخص

يعتبر مركب القابلية للاستعمار من أهم وأبرز الأفكار التي جاء بها مالك بن نبي بل أكثر أفكاره إثارة لاهتمام الباحثين والنقاد ، نظرا لما ينطوي عليه هذا المركب من نظرة فاحصة دقيقة للمرض الذي يعانيه الفرد نفسيا في المجتمعات المتخلفة، كما يعتبر مفهوم الذات من أبرز المفاهيم المستخدمة في علم النفس الحديث والتي ترتبط بالميدان التربوي والنفسي والإنساني بوجه عام .ومن البديهي أن حالة التخلف الاجتماعي والحضاري هي في الأساس تخلف المدرسة عن أداء الدور المنوط بها في تربية النشء تربية نفسية سليمة تضمن الانسجام والتوازن النفسي الذي يتحول لا محالة إلى انسجام اجتماعي من بعد.

لكن المستقرى لواقع فهم المفكرين والباحثين و النقاد المهتمين بمركب القابلية للاستعمار، يجد أن معظم دراساتهم، اهتمت بتحليل هذا المركب إما بالرفض أو بالتأكيد دون التطرق إلى تبريره تبريرا علميا بالاستناد إلى معطيات الدراسات العلمية والنفسية الحديثة. فكانت هذه الدراسة من اجل أن نؤصل نفسيا لمركب القابلية للاستعمار وذلك في ضوء مفهوم الذات.

Abstract :

The liability for colonialisation is considered to be one of the most important theses of Malik bin Nabi. if not, the most interesting one whose had a huge interest amongst researchers and critics, because the idea gives a careful examination of the individual who is suffering psychologically in the underdeveloped societies. furthermore, the concept of ego is considered one of the most prominent concepts used in Modern psychology, which is related to the educational, psychological and humane fields in general. It is obvious that the state of social and cultural backwardness is basically the failure of the school to perform the role assigned to provide a healthy psychological education for young people, that ensure harmony and psychological balance that inevitably becomes social harmony on the long run.

أهداف الدراسة:

تسعى هاته الدراسة لتحقيق مجموعة من الأهداف أهمها:

\* فهم القابلية للاستعمار في سياق رؤية مالك بن نبي الحضارية.

\* جعل فكرة القابلية للاستعمار مبررة تبريرا علميا جديدا في ضوء معطيات ومفاهيم علم النفس الحديث .

أهمية الدراسة:

انطلاقا من أهمية مركب القابلية للاستعمار ووزنه في فكر مالك بن نبي تأتي أهمية هذه الدراسة الحالية ،اذ ما يزال البحث من

أجل فهم هذا المركب فهما دقيقا يشغل المهتمين بفكر مالك بن نبي . ويمكن حصر أهمية هذه الدراسة فيما يلي :

\*إلقاء المزيد من الوضوح والمشروعية لفكرة القابلية للاستعمار

\* تكملة جهد الباحثين والمهتمين بتبرير وتوضيح القابلية للاستعمار

\* تغطية النقص الذي اعترى فهم الباحثين لفكرة القابلية للاستعمار

\*المساهمة في الدعوة لاستثمار التصور الايجابي لمفهوم الذات في المدارس

\* وبشكل خاص نرى أن أهم ما تبرز فيه أهمية هذه الدراسة أن المراجعة بينت لنا انعدام الدراسات التي حاولت تأصيل مفهوم

القابلية للاستعمار علميا بالاعتماد على الدراسات التي أنجزها العلماء في موضوعي مفهوم الذات والفاعلية الذاتية، وعليه

تظهر أهمية هذه الدراسة أنها الأولى من نوعها -في حدود علم الباحث- التي تؤصل نفسيا لفكرة القابلية للاستعمار

،وتعطيها صبغة علمية في ضوء مفهوم الذات .

مصطلحات الدراسة:

\*القابلية للاستعمار:

والمقصود به الهزيمة النفسية التي يصاب بها المغزو ، ليصبح قابلاً للاستعمار وتبعاته ومدافعا عنه وهو معامل داخلي نفسي ، وهو هو مفهوم أو مصطلح طرحه مالك بن نبي سنة 1948 في كتابه شروط النهضة ، والذي يقصد به: " جملة أوضاع وشروط فكرية ونفسية واجتماعية وسياسية سلبية، تضع المجتمع في حالة من الضعف والقصور والعجز إزاء التحديات المحيطة به، فيجد نفسه في حالة وهن حضاري يُفقد القدرة على رد التحديات ويخضع لها مكرهاً<sup>1</sup>.

\* مفهوم الذات:

يعرفه الدسوقي (1996) على أنه الفكرة التي يكونها الفرد عن نفسه فيما يتضمن من جوانب جسمية واجتماعية وأخلاقية وانفعالية يكونها الفرد عن نفسه من خلال علاقته مع الآخرين وتفاعله معهم<sup>2</sup>.

ويعرفه زهران في (مهند عبد سليم، 2003) على أنه تكوين معرفي منظم ومتعلم للمدركات الشعورية والتصورات والتقييمات الخاصة بالذات ، يبلوره الفرد ويعتبره تعريفاً نفسياً لذاته، ويتكون مفهوم الذات من أفكار الفرد الذاتية المنسقة والمحددة لأبعاده، ومن العناصر المختلفة لكيونته الداخلية والخارجية<sup>3</sup>.

ويعرفه الباحث بأنه ذلك التصور الكلي عن الذات الذي يحمله الفرد في نفسه والشامل لمختلف خصائصها النفسية والجسمية والمعرفية وهو مفهوم ديناميكي ويرتبط أشد ارتباط بالمؤثرات النفسية حيث أنه مفهوم مكتسب عن طريق الخبرة .

أولاً: القابلية للاستعمار عند مالك بن نبي

عندما جاء مالك بن نبي في سنة 1948 ولأول مرة بمفهوم القابلية للاستعمار فان هذا المفهوم كان بمثابة الصدمة للكثير من المفكرين الذين كانوا دائماً وأبداً يرجعون الحالة التي عليها الشعوب الإسلامية و شعوب المستعمرات بوجه عام إلى العامل الخارجي متمثلاً في الاستعمار ، إلا أن القليلين منهم اعتبر أن فكر مالك بن نبي سابق لأوانه مثل المفكر "جودت سعيد" . وأن القراءة العميقة لمعنى مركب القابلية للاستعمار تكشف عن النظرة الدقيقة الفاحصة والموضوعية لواقع الشعوب المستعمرة ، في حين يرى آخرون من أمثال "عبد الحميد سي ناصر" و "غازي التوبة" وغيرهما أن هناك مفكرين آخرين سبقوا بن نبي. في التوصل للنتائج ذاتها بشأن الأسباب "التي تجعل شعباً يسقط في تاريخه". كان أبرزهم توينبي و مونتسكيو . بل أن هناك الكثير من قدماء المفكرين الذين لم يكونوا محور الفكر الغربي كانوا اقتربوا بشكل أو بآخر من تفسير هذه الظاهرة. التي يشير إليها مالك بن نبي. بـ"القابلية للاستعمار". ويرى الكثير من الباحثين أن ما عزز أطروحة بن نبي هذه و بلورتها بشكل دقيق و الاشتغال عليها بمنهجية و بإلحاح المهتم.

1- مفهوم القابلية للاستعمار:

يعتبر مفهوم القابلية للاستعمار أحد أبرز الأفكار التي طرحها بن نبي في الكثير من مؤلفاته وهذا المفهوم من حيث الشكل يتركب من لفظين يحمل كل منهما مدلولاً فالقابلية تتعلق بنفسية لدى المستعمر كأن متهيئاً لتلقي واستقبال شيء خارج عنه ، أما الاستعمار فهو مظهر خارجي يقع على من له قابلية للاستعمار .

أما من حيث المضمون يعد طرح مالك بن نبي لهذا المركب بمثابة ثورة على التوجهات التي قبله والتي كانت تندد بوحشية الاستعمار وظلمه وتستنكره وترفضه ، والتي كانت ترى في الاستعمار قدراً محتوماً وأمرًا مفروضاً . حتى جاء بن نبي مشيراً إلى أن الاستعمار ما هو إلا ظاهرة عرضية لمرض باطني ذاتي الذي هو القابلية للاستعمار.

و تمثل القابلية للاستعمار موقفا نفسيا يتعلق بضعف الشعور بالولاء للوطن والكرامة القومية، وضعف الحمية والحماس لقضايا الوطن والأمة، والانصراف إلى الاهتمام بقضايا معيشية ويومية والانشغال بلوازم ومتطلبات الحياة الاجتماعية للفرد وأسرته، إن هذا الموقف النفسي قد لا يصل إلى حد العمل الإيجابي لتدعيم روابط التبعية للخارج ولكنه يشكل احتياطيا فعلا لحماية ودعم من يقوم بهذا النشاط الإيجابي.

يرى ابن نبي أن القابلية للاستعمار تكبل المجتمع وتحول دونه والإبداع، فالاضطراب والفوضى والتناقض والغموض، وغير ذلك من السلبيات التي تتصف بها بعض النتائج الفكرية في العالم الإسلامي إنما ترجع في جانب كبير منها إلى تلك "القابلية للاستعمار" التي تسكن نفوس أبناء هذا المجتمع، وتدفعهم من موقع الدونية والتقليد إلى تمثل أشياء الغرب وأفكاره دون أي دراسة دقيقة وواعية بالتمايز الحضاري الشاسع الموجود بين المجتمعات الإسلامية والمجتمعات الغربية.

## 2- الظروف التاريخية لنشأة القابلية للاستعمار عند بن نبي:

يعيد مالك بن نبي جذور المشكلة، وهي القابلية للاستعمار، إلى عصر إنسان ما بعد الموحدين. ويؤكد في ذات السياق أنه لا بد من النظر إلى المشكلة من جذورها البعيدة، فنجد أنه يؤكد هذا بقوله: "إن هناك حركة تاريخية ينبغي ألا تغيب عن نواظرننا، وإلا غابت عنا جواهر الأشياء، فلم نر منها غير الظواهر، هذه الحركة لا تبدأ بالاستعمار، بل بالقابلية له، فهي التي تدعوه ومع ذلك فلقد يكون الاستعمار أثرا سعيدا من آثار تلك القابلية، لأنه يقلب حينئذ التطور الاجتماعي الذي أوجد المخلوق القابل، فهذا المخلوق لا يدرك قابليته للاستعمار إلا إذا استعمر، وعندئذ يجد نفسه مضطرا أن يتحرر من صفات أبناء المستعمرات، بأن يصبح غير قابل للاستعمار".<sup>4</sup>

أي أن المشكلة تاريخية ارتبطت بالظروف التي أفرزتها دولة ما بعد الموحدين والتي هي مرتبطة بالفرد الذي تخلى عن وظيفته التاريخية ممثلة في الريادة والزعامة التي كان الإسلام قد كفلها لكل الدول التي جعلته منهاجا ودستورا في الحياة، وعندما يتخلى الفرد عن الريادة فإنها تنتقل إلى غيره، لكن إنسان ما بعد الموحدين لم يتفطن إلى الأزمة حتى بدأت مظاهرها تتجلى للعيان ممثلة في الاستعمار والاستبداد. وبذلك فالاستعمار مظهر وعرض خارجي شكلي، وليس هو السبب الأول لحالة التخلف والجمود والتبعية بالرغم من أنه يسعى وبكل الوسائل إلى تكريس هذه التبعية التخلف والجهل والجمود.

إن ما يراه مالك بن نبي هو أن هناك مشكلة داخلية في العالم الإسلامي، بغض النظر عن المشكلات والضغوط والمؤامرات الخارجية، أي أنه حتى لو استبعدنا وجود وتوحش الاستعمار للدول العربية والإسلامية فإن العطب والخلل الداخلي هو كافٍ وحده بتأخر المسلمين وتخلف بلادهم.

وقد أكد بن نبي أن الاستعمار قد جاء إلى العالم الإسلامي نتيجة مرض أساسي عندنا، هو القابلية للاستعمار.. وهو نتيجة الصراع الفكري الموجود في البلدان المستعمرة وهذا الصراع خطط له الاستعمار وأحسن إحكام الخطة، مثل ما هو عليه المسلمين اليوم، إذ نجدهم مشتتين أشياعا ومذاهب كل يدعي أنه على صواب، من سنة وشيعة إلى إخوان وسلفيين، جهاديين وصوفيين... وهكذا. ما لقد سلط الاستعمار الأضواء على المشكلات الهامشية الموجودة في هذه البلدان وحجبها عن المشكلات الجوهرية، وبذلك ترك في الظلام كل رؤية منهجية سليمة.. تفتح الطريق أمام حركة التاريخ.

فالاستعمار لا يستطيع السيطرة على أي أمة إلا إذا كانت ضعيفة ومفككة من كل النواحي، وتاريخ الغزوات الصليبية على بلاد المقدس خير شاهد على ذلك؛ إذ اعتمدت هذه الغزوات على تقارير كان يكتبها الحجاج من نصارى أوروبا إلى بيت المقدس في القرون الوسطى، حيث لاحظ أولئك الحجاج الأوروبيون أن طرقهم إلى فلسطين عبر بلاد المسلمين لم تعد آمنة مثلما كانت من قبل، وكثر فيها قُطَاع الطرق واللصوص بلا رادع يوقفهم، وعلى إثر ذلك استنتجوا أن الدولة الإسلامية تمر

بمرحلة ضعف، ومن هنا صاروا يوصون بغزو بلاد الشام وفلسطين واحتلال القدس، فالحاكم بات ضعيفا والبلاد هشة إلى درجة يسهل معها الاحتلال والسيطرة الكاملة عليها. والأخطر من ذلك ما أسماه مالك بن نبي بـ "الاستعمار النفسي"<sup>5</sup>. إذ يقول عن فكرة "القابلية للاستعمار" بأنها تكونت عندنا قبل أن يخطر في بال الاستعمار أن يستعمرنا، وتكونت هذه القابلية تحت قباب مساجد وجوامع العالم الإسلامي في بخارى، وسمرقند، وبغداد، والقاهرة، والقيروان، ولم تتكون في لندن أو باريس أو موسكو أو واشنطن<sup>6</sup>

إن مرض القابلية للاستعمار المتفشي في عالمنا الإسلامي ليس جديدا ولا غريبا بل هو ظاهر بين في ضعفنا، ولكن يمكن القول أن المشكل يكمن في المصطلح ذاته، وسنعطي مثالا على ذلك، لقد جاءت المقدمات التي تعلن من بعد القرون، قدوم الاستعمار واحتلاله للأوطان الإسلامية، فقد جاءت من غير مصدر واحد، بل من مصادر كثيرة، فمثلا نجد ابن خلدون يذكر في مقدمته، وفي عبارات عامة من التاريخ، وهو يكتبها بعد قرن من سقوط بغداد، وقبل قرن من سقوط غرناطة، يقول هذه الكلمات الغريبة وكأنما هو يلمح إلى ما سوف يأتي وهو يتأمل الرقعة الإسلامية من شرقها إلى غربها: "وكأنني بالمشرق ينزل به ما نزل بالمغرب على نسبة أملاكه" ثم يضيف: "وكأنما لسان الكون ينادي بالتقلص والأفول فاستجاب"<sup>7</sup> هذه الفقرة من عبارة ابن خلدون إذا وضعناها في سياقها التاريخي أي وسط بين قرنين، قرن مضى لسقوط بغداد، وقرن آت لسقوط غرناطة، سنجد أن ابن خلدون كان ينذر بلغة ذلك الزمن من التقلص والأفول، لكن دون ذكر لكلمة استعمار، إذ كان المصطلح غير موجود في ذلك الزمان، فالمصطلح لم تكونه بعد الظروف التاريخية، فلو قلنا لابن خلدون في ذلك الزمان "استعمار"، ما كان ليفهم الكلمة بمعناها المعاصر، إذ المصطلح جديد عليه، وكذلك نجد كلمة القابلية للاستعمار، فالمركب لم يكن مألوفاً عندما طرحه مالك بن نبي لأول مرة، ما ولد ردة فعل عنيفة من طرف الكثير من معاصريه.

### 3- مظاهر القابلية للاستعمار:

يؤكد بن نبي أن أول مظاهر القابلية للاستعمار هو قبول أحكام المستعمر. فنجده يقول:.. فنرى أولا هذا الرجل يقبل اسم الأهلي يوم استأهل لكل ما ترمي إليه المقاصد الاستعمارية، من تقليل قيمته من كل ناحية حتى من ناحية اسمه، ومما يلاحظ أنه منذ سنين قليلة كان هذا الرجل يحمل هذا الاسم كرايته وكانت الجرائد تعنون به صحفها، وكنا نسمع هذه الكلمة تتردد في خطب الطبقة المثقفة (الأهلية) و نقرؤها في مقالاتها. وإذا لم نكن شاهدا خصيانا يلقبون أنفسهم (بالخصي) فقد شاهدنا مرارا مثقفين جزائريين يطلقون على أنفسهم (الأهلي) ومعنى هذا أننا قد أخذنا أنفسنا بالمقياس الذي تقيسنا به "إدارة الشؤون الاستعمارية"<sup>8</sup>

وقبول الاسم يعكس قبولا شاملا بالوضعية التي فرضها المستعمر وهذا القبول لا يتموضع في منطقة الوعي فقط، بل ينغرس في أعماق اللاوعي ليصبح استبطانا للمفهوم الاستعماري عن الذات وهو مفهوم ينقص من قدرها ويحد فاعليتها الحيوية وتصوراتها عن نفسها وعن العالم بالحدود التي يريدها المستعمر، وهكذا يصبح المستعمر ينفر من العمل الجدي، ومن الفضيلة، ومن العالم... الخ.

فالمعامل الاستعماري عند بن نبي هو عامل خارجي يفرض على الكائن المغلوب على أمره، والذي يطلق عليه المستعمر اسم "الأهلي" نموذجاً محددًا من الحياة والفكر والحركة، وحين يكتمل خلق هذا النموذج يظهر من باطن الفرد معامل "القابلية للاستعمار"، ويشير بن نبي إلى أن أول مظاهر فاعلية هذا المعامل هو قبول ضحية الاستعمار اسم الأهلي، ويستغرب مالك أشد الاستغراب حينما يرى مثقفين جزائريين يلقبون أنفسهم بهذا الاسم فيقول ففي هذه الحقبة الطويلة من الزمن كان على

الإنسان أن يحتقر نفسه وان يتحلى بلقب الانديجين كي يتناغم مع وضع استعماري لا شفقة فيه، و المثقف في الجيل السابق كان يطالع جريدة "صوت الانديجين"<sup>9</sup>. أو بالأحرى "صوت المحتقرين" وإذا تعين عليه أن يكتب شيئاً فموضوعه يتحدد في ذهنه بقابلية للاستعمار، مثلما نشر احد المثقفين حوالي عام 1925 كتابا عنوانه "يا الله" وأردف هذا العنوان بعنوان أحر يفسره "أو كيف يأمر الأوروبي الانديجين حتى يطيعه"؟ فقبول الاسم حسب رأيه معناه أننا قد أخذنا أنفسنا بالمقياس الذي تقيسنا به الإدارة الفرنسية.

ان معامل القابلية للاستعمار كما يشرحه بن نبي هنا هو العامل الداخلي المستجيب للعامل الخارجي ، انه استسلام داخلي عميق للاستعمار. يرسخه ويجعل التخلص منه أمرا مستحيلا . لذا يرى مالك بن نبي أن الاستعداد النفسي من لدن الشعوب المستعمرة للخضوع للاستعمار ، عامل قوي لاستدامة بقاء الاستعمار .

لا شك أن القابلية للاستعمار موجودة، فالأنانية وحب الرئاسة ولو على حساب المبادئ، والضعف الأخلاقي ، وعدم وعي الشعوب لما يجلب لها المصلحة ويبعد عنها المفسدة ، وبشكل عام التخلف الحضاري الذي يجب أن يكون محل دراسة عميقة<sup>10</sup>.

وفي ذات السياق يصف بن نبي الحالة التي يكون عليها المجتمع عاجزا عن القيام بأي جهد اجتماعي بأنها "قابلية للاستعمار"، حيث يضرب لنا نماذج مختلفة لبعض الدول منها اليمن حيث يقول: "...وفي مقابل ذلك نجد اليمن التي لم تفقد استقلالها لحظة ، لم تفد من ذلك الاستقلال أدنى فائدة ، لأنها قابلة للاستعمار ، أعني عاجزة عن القيام بأي جهد اجتماعي"<sup>11</sup> ويؤكد أن هناك ظروفًا دولية وليدة الصدفة حفظت لليمن استقلاله بالرغم من قابليته للاستعمار.

والقابلية للاستعمار بدورها ترتبط أساسا بالسلبية و اللافاعلية التي تميز بها إنسان ما بعد الموحدين - كما أشرنا إليه سابقا- المكبل بمعوقات النهضة ، فالمسلم على سبيل المثال لا يستخدم ما تحت يده من وسائل ليرفع من مستواه ، وهو ما يزال بعيدا عن عمل اجتماعي كبير ، إذ أن هناك عجز في الربط بين الفكرة ونتيجتها المادية، فإما فكرة لا تتحقق ، وإما عمل لا يتصل بفكرة ، فهناك أساطير تكف المسلمين عن العمل المثمر ، منها: أسطورة الفقر، فيقول أحدهم: نحن فقراء ولسنا بقادرين على أداء هذا العمل ، ولكن لننظر إلى ما يملكه المسلم الثري من مال لنرى مدى فاعليته الاجتماعية هل يهتم بتربية طفل مسلم تربية عملية ؟ إن التسابق إلى السرف يتساوى فيه الفقير والغني.<sup>12</sup>

لا يحتاج الغرب أن يأتي إلينا الآن ولا أن يدخل بلادنا بجيوش جرارة كما كان يفعل قديما لأنه أحكم قبضته وحقق مبتغاه ولأنه غرس في نفوسنا الإحساس بالنقص حياله والشعور بالتبعية له ولأنه نجح في رسم صورة عظمى في مخيلاتنا عنه، صورة تشعرونا بأنه الأكمل والأصح وبأننا الجزء التابع للكل ، حتى أن واقعنا العربي اليوم يعكس وبجلاء هذه التبعية فنجد الدول العربية تتنافس لإرضاء الغرب عموما وأمريكا بصفة خاصة ، عبر السعي لبناء علاقات "دبلوماسية" تحت غطاء "المصالح المشتركة" وبرعاية قيم "الديمقراطية، العولمة ، الانفتاح على العالم .. وغيرها كثير . فبعض الموالين للاستعمار فينا وهم من دون شك من الطبقة "المثقفة" يسهل على الغرب ان ينفذ ما يريد بأفضل وأسرع مما يستطيع .. وإذا كان هدف الغرب مثلا «إرباك مصر» فإن هدف الجهلاء «إسقاط مصر». فنحن لا نحتاج الآن إلى استعمار جديد، ذلك أن العملاء الجدد يضاعفون القابلية للاستعمار.

ان النظرة الفاحصة العميقة لمصطلح القابلية للاستعمار تجعلنا نستخلص أنها صفة لا تعني فقط انتشار التخلف والأمية والركود في المجال الاقتصادي والصناعي وغيرها . بل تعني أشياء كثيرة في أعماق النفس والفكر ، تقلب موازين القيم فيصبح الأصيل منها تخلفا ورجعية . والجديد الوافد إلينا من الغرب انفتاحا وتجديدا وتقدما، فيصاب الذهن بالبلادة، والعقلية

بالركود والجمود عن كل إبداع ، وتفتكك بذلك العلاقات الاجتماعية نتيجة انهيار منظومة القيم . فيصبح الأفراد نتيجة العجز والكسل يطالبون بالحقوق دون القيام بالواجبات، كما نجدهم يميلون إلى تبني مبدأ السهولة أي سلوك ما هو أسهل.، حسب تعبير مالك بن نبي . بمعنى أن الفرد يختار من بين الحلول لمشكلات أمته ما هو أسهل ، وليس ما هو أنفع وأجدي. ونجد كذلك يميل إلى التعايش مع الباطل وتفادي التصادم معه ، لأن هذا التعايش يحفظ المصالح الشخصية للفرد .

وحيث تسود هذه الأمراض في مجتمع، يصبح قابلا للاستعمار ، فيستدعي بواقعه هذا أن تحكمه دول أخرى بجيوشها أو مؤسساتها السياسية أو على الأقل بتنصيب حلفاء موالين لها ، أو مؤسساتها الاقتصادية كما هو في الشركات المتعددة الجنسيات أو الثقافية كمنظمات حقوق الإنسان واليونيسيف وغيرها من الشركات الاستعمارية التي تغطي بغطاء الشرعية الدولية ، نتيجة لهذا يطارد الأحرار، وتهدر الأدمغة، وينتشر الفساد، ولعل هذا ما حذر منه الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال: "يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها"، ويبيّن سببها بأنه (( الوهن، قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكرهية الموت)) رواه أبو داود. ولا شك أن هناك تقاربا في المعنى بين ما قصده المصطفى صلى الله عليه وسلم بمصطلح "الوهن" وبين ما قصده بن نبي بالقابلية للاستعمار.

والواقع أن ما نراه اليوم في العالمين العربي والإسلامي من عودة للاستعمار الأجنبي بصوره وأشكاله المختلفة يُعزز من وجهة فكرة القابلية للاستعمار التي طرحها مالك بن نبي قبل خمسين عاماً من الآن؛ فضعف العرب وتفرقهم وانتشار الفقر والامية والتخلف وتدني مستوى التعليم وتغول الفساد السياسي والمالي والإداري، بالإضافة إلى انعدام الشرعية السياسية لدى معظم النظم العربية وتردي الأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية في ظل ظروف قمعية واستبدادية تكتم وتصادر الحريات العامة؛ كل ذلك يكرس الانقسام بين الحكام والمحكومين وبالتالي يُجفّر ويغري الاستعمار بالانقضاض علينا واستغلال جهلنا وضعفنا، ومن ثمّ التحكم في حاضرنا ومستقبلنا. فالقابلية للاستعمار تعني - باختصار - ضعفنا وعدم قدرتنا على التخلص من وهم قوة الآخر، فقوته لا تكمن إلا في غفوتنا وعجزنا فقط، وما أصعب التغلب على الوهم وما أسهله في نفس الوقت.

ثانياً: مفهوم الذات SELF - Concept

تعتبر الذات من أهم الموضوعات التي جلبت إليها اهتمام المفكرين و الفلاسفة منذ الفكر الشرقي القديم مروراً بالفلسفة اليونانية (مع سقراط وأرسطو) ثم الفلسفة الإسلامية (ابن سينا) وصولاً إلى الفكر الحديث والمعاصر نظراً لأنها لم تلق تفسيراً واحداً و موحداً . فتعددت التفسيرات بتعدد المذاهب والتوجهات الفلسفية والفكرية والدينية . وبالتالي لم يكن هناك تعريف محدد لمفهوم الذات وسنحاول من خلال هذا الفصل أن نستعرض مجموعة من التعاريف له ، وربما يعود اختلاف التعاريف وكثرتها إلى تعدد النظريات المفسرة لمفهوم الذات والتي من بينها : النظرية الظاهرية ويمثلها كارل روجرز ( karl rogers) إضافة إلى سينج وكومبس syngg and combs وسارين sarbin ، والنظرية السلوكية ويمثلها سكينر skinner ، ونظرية السمات والعوامل ويمثلها كل من ألبورت allport و كاتل cattle . وكل نظرية تقدم تفسيراً يختلف عن غيرها من النظريات .

وعلى الرغم من الصعوبات المتعلقة بمفهوم الذات ، إلا أنه قد حظي بالاهتمام ، حيث قدم كثير من العلماء آراء ونظريات عديدة ، بالرغم من أن معاني مفهوم الذات قد تغيرت من نظرية إلى أخرى ، إلا أنها في غالبيتها اعتبرت مفهوم الذات هو النواة التي تقوم عليها الشخصية كوحدة مركبة ديناميكية ، و أنه المعنى الوحيد المحرد لإدراكنا لأنفسنا جسدياً وعقلياً واجتماعياً ، على ضوء علاقتنا بالآخرين<sup>13</sup> .

## 1- تعريف مفهوم الذات :

لقد تعددت تعريفات مفهوم الذات واختلفت باختلاف نظرة العلماء إليها وستتطرق فيما يلي إلى تعريف مفهوم الذات لغة واصطلاحاً ثم تعريفات أبرز العلماء.

تعريفه في اللغة :

لا يوجد في قواميس اللغة العربية تعريف لمصطلح مفهوم الذات وإنما وجد تعريف لمعنى كلمة مفهوم وتعريف آخر لمعنى كلمة ذات.

وتعرف كلمة مفهوم في المعجم الأدبي كالتالي :

وتعرف كلمة مفهوم بأنها كل ما يمر في خاطرننا عند ذكر لفظه من الألفاظ يكون مرتبطاً بها ومعرفاً بماهيتها حسب اعتقادنا وموقفنا منها (المعجم الأدبي ، 1984م).

وتعرف كلمة ذات في المنجد كالتالي :

وتعرف ذات في اللغة : ما يصلح لأنه يعلم ويخبر عنه ، وذات الشيء نفسه ، عينه ، جوهره ، واسم الذات عند النحاة : ما علق على ذات كالرجل ، الأسد (المنجد ، 1986م : 240).

وإذا جمعنا التعريفات لكلمة مفهوم ، وذات في اللغة يكون التعريف في اللغة لمفهوم الذات هو : إدراك وتصوير الذات (النفوس).

مفهوم الذات اصطلاحاً

يعتبر تعريف الموسوعة التربوية من أفضل التعريفات لمفهوم الذات كمصطلح تربوي. فتعرفه الموسوعة التربوية Encyclopedia of educational of أن مفهوم الذات هو تركيبة معقدة من الأحاسيس والمعتقدات والمفاهيم حول النفس ويتمثل في مقدرة الفرد على إدراك ذاته وهو يعتمد في ذلك على قدرته لتقبل تجاربه وخبراته المتزايدة. والتي تضم الخبرات الاجتماعية المكتسبة بواسطة الآخرين.

وهناك العديد من المصطلحات يوضع موضعها حول الذات منها ما يلي :

\*تقبل الذات: وهي الصورة التي يصف بها الفرد ذاته كما يدركها ، والتي تعبر عن مستوى الرضا الذاتي .

\*تقدير الذات: وهو أعم وأشمل من تقبل الذات ، إذ أنها الدرجة التي يعطيها الفرد عن تقبله لذاته.

\*تحقيق الذات: يرتبط تحقيق الذات بالهدف ويقصد به إدراك الفرد للمستوى الذي حققه و أنجزه لذاته اجتماعياً ، أسرياً ، مهنياً... الخ.

تعريف مفهوم الذات عند المفكرين والعلماء:

لقد تعددت تعريفات مفهوم الذات وتنوعت بين المفكرين والفلاسفة وعلماء النفس وفقاً للإطار المرجعي لكل نظرية ويمكن ذكر بعضها كما يلي :

\* يعرف روجرز ( 1942 ) مفهوم الذات بأنه أسلوب الفرد في النظر إلى نفسه . فالذات عند روجرز هي شعور الفرد بكيانه ووجوده ووظيفته ، أي هي شعور الفرد بكيانه ووجوده ووظيفته ، أي هي فكرة الفرد عن نفسه كمصدر للفعل ، وعليه يتكون مفهوم الذات عند روجرز من مجموعة منتظمة من الصفات والاتجاهات والقيم التي يكتسبها الفرد من خلال تفاعله مع

العالم.<sup>14</sup>

\*كوبر سميث و فيلدمان ( 1974 )، (Coopersmith&Fildman) عرفا مفهوم الذات على أنه : مجموعة من المعتقدات والتصورات والافتراضات التي يكونها الفرد عن ذاته ، أي أنه نظرة الشخص عن نفسه كما يتصورها وينظمها في الأنا الأعلى.<sup>15</sup>

ومن العلماء العرب الذين اهتموا بمفهوم الذات في أبحاثهم وقاموا بتطوير اختبارات الذات نجد زهران، حيث عرف الذات بأنها : تكوين معرفي منظم وموحد متعلم للمدركات والتصورات والتقييمات الخاصة بالذات ، يبلوره الفرد ويعتبره تعريفا نفسيا لذاته ، ويتكون مفهوم الذات من أفكار الفرد الذاتية المنسقة والمحددة الأبعاد ، والعناصر المختلفة لكيانته.<sup>16</sup>

كما حدد علماء النفس مفهوم الذات ، واستخدموه على أنه مصطلح سيكولوجي يعبر به عن مفهوم افتراضي شامل يتضمن جميع الأفكار و المشاعر عند الفرد ، والتي تعبر عن خصائص جسمية وعقلية وشخصية ، ويشمل ذلك معتقداته وقيمه وقناعاته ، كما ويشمل خبراته السابقة وطموحاته المستقبلية

ومن خلال ما مر من تعريفات فان الباحث يرى أن مفهوم الذات هو الصورة التي يدركها الفرد عن نفسه من صفات جسمية وأخلاقية وعقلية وسلوكية ، وهذا التصور يتكون منذ مرحلة الطفولة ، وينمو تدريجيا إما في الاتجاه الايجابي وإما في الاتجاه السلبي ، وهذا يتوقف على الأحكام التي يتلقاها الفرد منذ صغره من المحيطين به وخصوصا الوالدين ، ومدى الحرية التي يعطيها للطفل للتعبير عن ذاته وآرائه دون حجب أو نقض مستمر . وأنه ذلك التصور الذي يحمله الفرد في ذاته عن ذاته هو مكتسب بالخبرة. و يتأثر بعوامل متنوعة ، والذي ينعكس بدوره على سلوك الفرد ، و هو أسلوب خاص بالفرد في النظر إلى ذاته.

## 2- أنواع مفهوم الذات

التصنيف بحسب الطبيعة :

\*مفهوم الذات الجسمي:

ويمثل إحدى الأبعاد الهامة لمفهوم الذات وشخصية الفرد ومؤشراً هاماً لجوانب مختلفة لشخصيته، وأن شعور الفرد بأن جسمه كبير أم صغير، جذاب أم غير جذاب، قوي أو ضعيف، قد يفيد كثيراً في التعرف على مفهومه لذاته والتعرف على نمط سلوكه تجاه الآخرين ويرتبط بثقته في نفسه وفي طريقة تعامله مع البيئة المحيطة به ومن ناحية أخرى فان الأفراد الذين لديهم اتجاهات أو تصورات ايجابية نحو أجسامهم يتمتعون بدرجة مرتفعة لتقديرهم لذواتهم.<sup>17</sup>

\*مفهوم الذات الاجتماعي:

يعرف بأنه مجموعة المدركات والتصورات التي تحدد الصورة التي يعتقد الفرد أن الآخرين في المجتمع يتصورونها، والتي يتمثلها الفرد من خلال التفاعل الاجتماعي.<sup>18</sup> كما يعرف بأنه تلك المدركات والتصورات والتي تعكس الصورة التي يعتقد أن الآخرون يتصورونها والتي يتمثلها الفرد من خلال تفاعله الاجتماعي مع الآخرين.<sup>19</sup>

ويرى أصحاب المنظور الاجتماعي أن الذات هي نتاج اجتماعي ، وأنها تتشكل نتيجة تفاعله مع المحيطين به الذين يكون سلوكهم وتفاعلهم معه هو الذي يحدد اتجاهات تكوين الذات لدى الفرد ، ويصعب شخصيته . ويرى كولي أن الذات لا تمنح للفرد عند ولادته لأنها تتميز بالنمو الاجتماعي ، وترتبط دائما ببعض المشاعر أو العواطف .

فقد يرى الفرد بأنه شخص اجتماعي مرغوب فيه ، ولديه مجموعة من الاتجاهات و المبادئ والقيم التي تجعل من الآخرين ينظرون إليه بنوع من التقدير والاحترام ، مما يشعره بنوع من الرضا النفسي ، وقد يكون العكس فيرى أنه لا يمثل شيئا بالنسبة للآخرين ، فنظرة الآخرين له سواء بالقبول أو بالرفض تمثل جانبا قويا في عملية التوافق.

فمفهوم الذات الاجتماعي إذن يشير إلى تصور الفرد لتقويم الآخرين له معتمداً في ذلك على أقوالهم وأفعالهم نحوه، ويتطور نتيجة لتفاعل الفرد مع المجتمع. فالفرد في البداية، يقوم قدراته وحاجاته، وقيمه وطموحاته في ضوء تقديرات الآخرين له إلى أن يصل إلى مرحلة من النمو يكون قادراً عندها على فهم وتفسير أقوال وأفعال الآخرين نحوه، يبدأ بعدها بتطوير مفهوم ذاته الأساسي .

\* مفهوم الذات الأكاديمي:

يعرف مفهوم الذات الأكاديمي بأنه " اتجاهات التلميذ وتقييمه لنفسه من الناحية الأكاديمية والعامية ويتضمن هذا التعريف بعدين هما :

الكفاءة العامة : وتعني اتجاه التلاميذ وتقييمه لنفسه من ناحية إمكانية تغيير ما يشاء وتحقيق آماله ورضاه عن نفسه وعن أعماله ووسيلته في تحقيق تلك الأعمال بالإضافة إلى ثقته في صحة أهدافه .

الكفاءة المعرفية : وتعني اتجاه التلميذ وتقييمه لنفسه من ناحية مستواه المدرسي وإمكانية تحقيق أعماله المدرسية والاحتفاظ بمعلوماته واسترجاعها والفهم من المعلم<sup>20</sup>

ويعتمد هذا المفهوم كذلك على مقارنة الفرد بين ما لديه من قدرات وإمكانات أكاديمية ، وبين قدرات وإمكانات رفاقه وخاصة في الصف والمدرسة ، وتتم هذه المقارنة عادة في إطار تفاعلاته الاجتماعية والتربوية كما يراها الطلبة أنفسهم ومعلموهم .

التصنيف بحسب القيمة :

\* مفهوم الذات الإيجابي :

ويتمثل في تقبل الفرد لذاته ورضاه عنها ، حيث تظهر لمن يتمتع بمفهوم ذات إيجابي بصورة واضحة ومتبلورة يلمسها كل من يتعامل مع الفرد ويحتك به، حيث يكشف عنها أسلوب تعامله مع الآخرين الذي يظهر فيه دائما الرغبة في احترام الذات وتقديرها والحفاظ على مكانتها الاجتماعية ودورها وأهميتها والثقة الواضحة بالنفس والتمسك بالكرامة والاستقلال الذاتي ، مما يعبر عن تقبل الفرد لذاته ورضاه عنها ، وكذلك عن تحمل المسؤولية ، وأنه يعتمد عليه ومتفهم ومتفائل اتجاه الحياة والناس.

وقد أكد كحمان (Keajman,1982) على ضرورة إشباع الاحتياجات الأساسية للطفل لمساعدته على اكتساب مفهوم الذات الإيجابي ، كما أوضح أن مفهوم الذات الإيجابي وتقدير الذات المرتفع يتحققان حينما تشبع حاجتين أساسيتين للطفل هما: الأولى -إشباع حاجة الطفل إلى الارتباط، أي أن يكون مرتبطا مسندا ومرحبا به، ويسمى هذا بـ "التضمين"، أما الحاجة الثانية- فهي أن يكون مستقلا بذاته، وغير معتمدا، يختار أهدافه بنفسه، وهذا ما يسمى " بالاستقلالية أو التمييز"<sup>21</sup> .

بالإضافة إلى ما سبق، فإن كمية ونوعية القبول الذي يبديه الوالدان، والاستحسان يحددان إلى حد كبير صورة الأطفال عن أنفسهم.

فقد وجد سوبرلين (superlean, 1979) أن هناك علاقة إيجابية بين اتجاهات الوالدين نحو التقبل، ومفهوم الذات الإيجابي لدى الأطفال ، وخاصة مفهوم الذات الاجتماعية.<sup>22</sup>

حيث يظهر لمن يتمتع بمفهوم ذات إيجابي صورة واضحة ومتبلورة عن الذات ، يلمسها كل من يتعامل مع الفرد، أو يحتك به ، وتظهر الصورة الإيجابية عن الذات من خلال الثقة الواضحة بالنفس، التمسك بالكرامة ، والاستقرار الذاتي، وتحمل المسؤولية . كما أن مفهوم الذات الإيجابي يؤدي إلى الانجاز والتحصيل الأكاديمي لدى الأطفال لأن هذه الفترة تكون حاسمة

في تكوين مفهوم ذات إيجابي خاصة في الميدان التربوي. وعليه فتكوين مفهوم ذات سوي للذات في الطفولة يمهد الطريق للنمو الصحي لهذا المفهوم في المراحل التالية للحياة على أسس سليمة .  
\*مفهوم الذات السليبي :

ينطبق على مظاهر الانحرافات السلوكية، والأنماط المتناقضة مع أساليب الحياة العادية للأفراد، والتي تخرجهم عن الأنماط السلوكية العادية والمتوقعة من الأفراد الأسوياء في المجتمع والتي تجعلنا نحكم على من تصدر عنه بسوء التكيف الاجتماعي ، أو النفسي وتصنيفه في فئة غير الأسوياء.

"والواقع أن من يكون لنفسه مفهوما سلبيا كثيرا ما يكشف عن هذا المفهوم من أسلوب حديثه أو تعاملاته أو تصرفاته مع الغير أو من تعبيره عن مشاعره تجاه نفسه أو تجاه الآخرين مما يجعلنا نصفه بالعدوان أو عدم الذكاء الاجتماعي أو الخروج عن اللباقة في التعامل أو عدم احترام الذات . ويشمل مفهوم الذات السليبي عددا من الخصائص السلبية للسلوك ، عند مقابلتها بالجانب الإيجابي لمفهوم الذات ، فهو كمفهوم يصاحبه التباعد واليأس والقلق وبعض مظاهر الاضطراب النفسي الأخرى . فعادة ما يعاني مثل هؤلاء الأفراد من نوعين من السلبية وهما:

الأول : يظهر في عدم القدرة على التوافق مع العالم الذي يعيش فيه، حيث الفرد يقول مثلا بأنه ليس على مستوى الآخرين ، أو أنه محمل بالمشاكل والهموم ، وأنه يشعر بعدم الاستقرار النفسي وعدم الاطمئنان في حياته.

أما الثاني : يظهر في شعور البعض ممن يعانون من مفهوم الذات السليبي بالشعور بالكراهية من الآخرين ، حيث نسمعه يعبر عن ذلك بأنه يشعر بعدم قيمته أو عدم أهميته وبأنه لا يعجب الآخرين مهما فعل ، والواقع أنه لو فتحنا المجال أمام مثل هؤلاء الأفراد للحديث ، فسيظهر من تعبيراتهم الشعور بالسلبية الخطيرة في مفاهيم ذواتهم والتي تعتبر البذور الأولى والرئيسية لأسباب الانحرافات والمشكلات السلوكية " .<sup>23</sup>

كنتيجة لتهديد قيمة الطفل وكفاءته وجدارته الذي يعتبر تهديدا لنمو مفهوم ذات الطفل بشكل إيجابي، فانه يضع مجموعة من ميكانيزمات الدفاع لحمايته من الهجوم عليه أو من الدونية ، وقد يحاول تقوية وتعزيز خصائص سلبية مفسرا إياها باعتبارها فضائل تخدم أغراض<sup>24</sup>.

### 3- العوامل التي تسهم في تكوين مفهوم الذات السليبي:

رأينا كيف أن مفهوم الذات السليبي يتكون نتيجة النبذ، وعدم المحبة التي يبديها الوالدان ، مما يربط ويعطل نمو النظام الصحي للذات. ويمكن الإشارة إلى أربعة أسباب للمشاعر التي تسبب مفهوم الذات السليبي وهي :

أ- الحماية الزائدة:

وذلك عن طريق أداء الأشياء للطفل باستمرار، تلك الأشياء التي يستطيع أن يؤديها الطفل لنفسه بنفسه ، وإطعامه وإلباسه، والتفكير بعنا، واتخاذ القرارات.

ب- السيطرة:

السيطرة على الطفل لدرجة أنه لا يستطيع معها أن يتخذ قراراته بنفسه تحت دعوى أنه ليس قادرا، أو أنه غير أهل لذلك ، لذلك تؤثر بشكل سليبي على مفهوم الطفل لذاته .

ج- الإهمال:

ويحدث حينما تكون مشغوليات الوالدين أكثر أهمية من الطفل، حيث يشعر بتجاهله وإهماله وعدم الاهتمام به .

د- الأوصاف والنعوت السلبية:

التي تدمج في صورة ذات الأطفال وتساعد على تعزيز النظرة السلبية للذات، وتقود إلى سلوك غير توافقي إلى حد كبير، ونتيجة لذلك نجد أن الطفل يسلك سلوكا يتلاءم مع الصفة المنعوت بها .<sup>25</sup>

ثالثا: مركب القابلية للاستعمار كنتيجة لمفهوم الذات السلبي

لا شك في أن مركب القابلية للاستعمار كان مالك بن نبي قد تحدث عنه من منظور سوسولوجي في كثير من مؤلفاته ، وبخاصة في حديثه عن حالة الفوضى والعشوائية التي يعيشها إنسان ما بعد الموحدين عندما أشار إلى أنه تخلى عن أداء دوره الحضاري والريادي أو كما أسماه الوظيفة التاريخية ، فأصابه الوهن النفسي أو الشعور بالعجز والكسل ، وهو ما كان نتيجة مفهوم الذات السلبي الذي كان قد تشكل في نفسه، ما يؤدي به إلى شعور بالدونية وهذا الشعور ينعكس مباشرة على واقعه الاجتماعي سلبيا فنجد مثلا يطالب بحقوقه أكثر من قيامه بواجباته، بل لا يولي هذه الأخيرة أدنى اعتبار ، كما نجد كثير الاتكال على الغير وخاصة أصحاب السلطة والحكم والنفوذ في تلبية مختلف متطلبات الحياة .

ونجد الفرد في هذه الحالة يعاني إحباطا نفسيا وشعورا بالعجز التام، يحيله هذا العجز إلى التفكير غير الجاد وغير المنهجي، والمشمت. فنجده يعاني حالة من الضياع لا يدري بموجبها الغاية من وجوده (يتكون لديه مفهوم ذات سلبي)، وتشل كل المعتقدات الإيجابية عن ذاته ومدى قدرته على أداء الأدوار (فاعليته الذاتية)، وبالتالي يتخلى عن أداء دوره الفردي والاجتماعي على السواء.

لا شك أن مفهوم الذات الإيجابي لدى الفرد ينعكس بصورة ايجابية مباشرة على واقعه، فمفهوم الذات الإيجابي ويتمثل في تقبل الفرد لذاته ورضاه منها حيث تظهر لمن يتمتع بمفهوم ذات إيجابي صورا واضحة ومتبلورة للذات يلمسها كل من يتعامل مع الفرد؛ أو يحتك به، ويكشف عنها أسلوب تعامله مع الآخرين، الذي يظهر فيه دائما الرغبة في احترام الذات وتقديرها، والمحافظة على مكانتها الاجتماعية ودورها وأهميتها، والثقة الواضحة بالنفس، والتمسك بالكرامة، والاستقلال الذاتي مما يعبر عن تقبل الفرد لذاته ورضاه عنها، ويعود قبول الذات من لديه مفهوم إيجابي عن ذاته إلى معرفة الذات والتبصر بها.

أما فيما يتعلق مفهوم الذات السلبي ، فإنه يسبب القلق والشعور بتهديد الذات. وقد أشارت العديد من الدراسات إلى الارتباط الوثيق بين مفهوم الذات الإيجابي والصحة النفسية من جهة، وبين مفهوم الذات السلبي والاضطراب النفسي من جهة أخرى. حيث أن الأفراد الأسوياء هم الأكثر إيجابية في تعاملهم مع الآخرين و الفكرة التي يحملونها عن أنفسهم إيجابية أي أنهم أشخاص مرغوب فيهم أما المضطربون فيظهرون مفهوما سلبيا عن ذواتهم.

فالإنسان بوجه عام إما أن يكون له مفهوم إيجابي عن ذاته، فينعكس على فاعليته الذاتية ايجابا، فيؤدي دوره الاجتماعي المنوط به ، وإما أن يكون له مفهوم ذات سلبي ينعكس على فاعليته الذاتية سلبا فنجده خامدا عاطلا عن أن أداء دوره الاجتماعي والحضاري، وبذلك يعاني التخلف، وهو قبل هذا وذاك مصاب بالقابلية للاستعمار.

إن الإنسان المصاب بالقابلية للاستعمار ،إنسان مقهور ،كائن مزيف فقد هويته واعتزازه بذاته (غياب مفهوم ايجابي عنها) وأوضاع أصالته ، لأنه يحمل صورة مظلمة عاتمة و مفهوما سلبيا عن ذاته، تنعكس سلبيا لا محالة على تصوره لقدرته في التأثير على عالم الأشياء والتغيير فيه( أي على فاعليته الذاتية) ، هذا التصور السلبي يفقده ذاته فيدفعه إلى اقتباس وتقليد المتسلط ، الذي وضعه مثلا أعلى في كل أنماط حياته فيأخذ مثلا ثقافته ، لغته ووسائل لهو ، أدواته وآلاته ، زيه وملابسه . وكلها تشكل المثل الأعلى في الواجهة ، يحاول الإنسان المصاب بالقابلية للاستعمار الوصول إليها ، من خلال الاقتراب من هذا المثل الأعلى.

القابلية للاستعمار كحالة مرضية نفسية فردية ، هي نتيجة المفهوم السلبي الذي يحمله الفرد عن ذاته والذي بدوره ينعكس على فاعليته الذاتية وعلى توقعاته لقدرته على انجاز مختلف المهام، تعني تخلف المسلم عن أداء دوره الاجتماعي الحضاري الريادي، لأن هذا المفهوم السلبي و غياب الفاعلية، يجعل الفرد خاملا متكاسلا ،مطالباً بحقوقه وبالمقابل مهملاً لواجباته ، وإهمال الواجبات الاجتماعية تجاه الآخرين، ينتج عنه لا محالة تفكك للروابط الاجتماعية، التي تقوم في الأساس على احترام الواجبات وتأديتها بالشكل المطلوب. فالعلاقة السلبية القائمة بين مفهوم الذات والفاعلية الذاتية هي سبب تشكل مرض القابلية للاستعمار.

و حينما يشعر الناس بعدم قدرتهم على تحسين نتائجهم، يكونون قد وصلوا إلى مرحلة يمكن أن نسميها العجز فيتعلمون أن يكونوا غير فاعلين في حياتهم، وربما تتغير هذه الخاصية، وتأتي الفرصة لتحمل المسؤوليات والتصرف إزاءها بفعالية.<sup>26</sup> وتمثل القابلية للاستعمار في استعداد نفسي للخضوع والتبعية والتقليد الأعمى والتنازل عن المبادئ والقيم والثقافات الأصيلة لصالح قيم وثقافات دخيلة مسترة بستر التجديد والتطور والعصرنة والانفتاح، فتحرف القيم والمبادئ عن معانيها فيصبح مثلاً التمسك بالأصالة تحلفاً ورجعية، والالتزام بتعاليم الدين تشدداً وتزمتاً، والتبرج والسفور موضة، وتقليد الغير في اللباس ونمط المعيشة وفي أنماط سلوكية مسائرة للتقدم والعصرنة. وغيرها كثير، و يتمثل هذا التنازل في شكل من أشكال الاستعمار أو الاستعباد أو التسلط الذي يتخذ لباساً وقناعاً ثقافياً أو اقتصادياً أو عسكرياً حسب الظروف والغايات التي يريدها المستعمر. فيقع الإنسان المصاب بجرثوم القابلية للاستعمار فيما يسمى في علم النفس ب"التماهي بأحكام المتسلط"، فيقوم إزاء هذا باحتياف عدوانيته وتوجيهها إلى الذات على شكل مشاعر ذنب ودونية وتبخيس للقيمة الذاتية. إنه ينخرط في عملية حط من قيمته وقيمة الجماعة الأصلية التي ينتمي إليها. ويقدر ما يذهب بعيداً في هذا الاتجاه، فانه يعلي من شأن المتسلط أو المستعمر ويبالغ في اعتباره وفي تهمين كل ما يمت إليه بصلة .

وتشيع أوالية التماهي بأحكام المتسلط خلال مرحلة الرضوخ وتجعل التسلط ممكناً بل يكاد يبدو طبيعياً. تبدو الهوة ساحقة بين المتسلط أو المستعمر والإنسان المقهور. وبالتالي فمن حق الأول أن يسود نظراً لتفوقه. يعاني الإنسان في هذه الحالة من مأزم وجودي حاد يتخذ شكل رفض الذات وعدم الاعتراف بها، بل إدانتها على فشلها . وينطلق المرء في مجموعة أحكام سلبية، تجعله لا يرى خيراً أو عزة في ذاته. إنها مصدر التقصير، ومجمع العيب وموضع الهوان . وصب الحقد على الذات لعجزها وفشلها في التصدي للمتسلط أو مجابهة قانون الطبيعة . يتغذى من مشاعر ذنب جديدة ترافقها بالضرورة ميول لتدمير الذات، ويسير الأمر تدريجياً في اتجاه الانفصام بين الذات الحقيقية وبين السلطة الداخلية (الأنا الأعلى) التي تتشدد في الحساب. يتماهي المرء كلياً مع هذه السلطة الداخلية ضد ذاته حتى يصل حد التنكر والرفض الكلي لها... ويعمم هذا التنكر على الموقف من الجماعة، فيكاد يحجل من الاعتراف بالانتماء إليها.<sup>27</sup>

ومما لا شك فيه أن وضعية أو حالة كهذه هي ما كان يطلق عليه بنبي بالقابلية للاستعمار التي تسهل على المستعمر وتمكن له بل وتستدعيه للسيطرة والاحتلال والغزو . يستغل المتسلط هذه الظاهرة ويعمل على تغذيتها وترسيخها بكل السبل الممكنة . فهو يؤكد على ضعف وجهل وتأخر ومهانة للإنسان المقهور، ويغرس هذه الصورة في نفسه غرساً من خلال عملية تبخيس دائبة تحاصر ذلك الإنسان من كل الجوانب. تحط من قدره وتسفل كل ما يمت إليه بصلة تراثه، عاداته، قيمه، إمكاناته، سادة أمامه كل آفاق التغيير والارتقاء بوجوده. وقد يصل الأمر حد التدمير المنظم لذات الإنسان المقهور ولتراثه، لحشره في الطريق المسدود الذي لا خروج منه إلا بالرضوخ، أو الاستلاب من خلال الذوبان في عالم المتسلط . ويقدر ما يحط من قدر هذا الإنسان المقهور ، يحاول المتسلط تضخيم أهميته الذاتية وتفخيم عالمه وانتماءاته وأدواته. بشكل

يهي الإنسان المقهور ، ويدخل اليأس في نفسه من أماكن التصدي والتساوي . وعند هذا الحد ينقاد هذا الإنسان المقهور إلى عملية استلابه : يتنكر لذاته ويحارب مصالحه . ويقدر تزايد تلك الحرب ، يربط نفسه بقيود تأسره في فلك المتسلط.<sup>28</sup> لكن وللأسف إذا نظرنا اليوم إلى واقعنا، نجد أن شبابنا بالمعظم لديهم القابلية للاستعمار فهم ينظرون إلى أنفسهم وإلى واقعهم وإلى حضارتهم وإلى تاريخهم نظرة سلبية . بل يخجلون من كونهم أنفسهم . فنجد الشاب يتمنى لو كان أصله ونسبه أوروبي أو أمريكي أو من أي مجتمع متحضر . ولا نجد يأمل -إلا نادرا- أن يسمو هو كفرد بما أوتي من قوة أو فرص بمجتمعه أو بأمته إلى مصاف هذه الدول .

ما نحتاجه اليوم إن نحو تلك النظرة السلبية نحو أنفسنا وأن نكون نظرة جديدة تؤمن بأننا قادرين على أن نمتلك زمام الأمور من جديد . ألا ننظر إلى ديننا على أنه من يعوق تقدمنا ألا ننظر إلى تاريخنا نظرة خجل بل نظرة فخر واعتزاز نحتاج إلى أن نحو من أنفسنا القابلية للاستعمار.<sup>29</sup>

### قائمة المصادر والمراجع:

- 1- الطيب برغوث، حركة تجديد الأمة على خط الفعالية الاجتماعية، د ط ، دار قرطبة، الجزائر، 2004م. ص 35.
- 2- الدسوقي راوية: الحرمان الأبوي وعلاقته بكل من التوافق النفسي و مفهوم الذات والاكنتاب لدى طلبة الجامعة " دراسة مقارنة"، مجلة علم النفس مجلد 10-11، عدد (40-41)، ص ص 18، 32.
- 3- مهند عبد سليم عبد العلي: مفهوم الذات وأثر بعض المتغيرات الديمغرافية وعلاقته بظاهرة الاحتراق النفسي لدى معلمي المرحلة الثانوية الحكومية في محافظتي جنين ونابلس ،رسالة ماجستير ،جامعة النجاح الوطنية، نابلس ،فلسطين، 2003، ص 31، في زهران عبد السلام: علم نفس النمو (الطفولة والمراهقة)، ط 4، عالم الكتب القاهرة ، مصر، 1983.
- 4- مالك بن نبي :وجهة العالم الاسلامي، مرجع سابق، ص 92.
- 5- سقاف عمر السقاف [www.almethaq.info](http://www.almethaq.info) . 2014/07/16.
- 6- مالك بن نبي : وجهة العالم الاسلامي، ص ، 57
- 7- أنظر مقدمة عبد الرحمن بن خلدون ، ط 1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ، لبنان، 1998.
- 8- مالك بن نبي ، شروط النهضة، ص 153.
- 9- صحيفة صوت الأندجيين (la voix des indigene) لصاحبها ربيع زناقي ظلت تدافع من 1929 الى 1942 عن سياسة الادماج وعن قيم المدرسة اللائكية الجمهورية .
- 10- محمد العبدية : مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد اصلاحي ، ط 1، دار القلم ، دمشق ، سوريا، 2006، ص 124.
- 11- مالك بن نبي :وجهة العالم الاسلامي ، ص 92.
- 12- مالك بن نبي:وجهة العالم الاسلامي ، ص 81.
- 13- شقير زينب : " مفهوم الذات ومظاهر الصحة النفسية لدى المكتئبين من جامعة طنطا . مجلة علم النفس، جامعة طنطا، مجلد 8- 9 . عدد 33 . 1995 . ص ص 34 . 37.
- 14- ابراهيم أبوزيد: سيكولوجية الذات والتوافق ،دار المعرفة الجامعية الاسكندرية ،مصر، 1986، 93.
- 15- صالح أحمد : " قياس تقدير الذات لطلاب الجامعة " . مجلة القياس والتقويم ، جامعة النجاح الوطنية - عدد 6، 1995، ص ص 215. 228 ،
- 16- زهران حامد عبد السلام : " علم نفس النمو ( الطفولة والمراهقة ) "، ط 4 . عالم الكتب ، القاهرة ، مصر ، 1983 .

- 17- محمد حسن علاوي: علم النفس الرياضي، ط9، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1994، ص 219.
- 18- عائشة جاسم الشامي: الفروق في مفهوم الذات بين مرتفعات التحصيل الدراسي ومنخفضات التحصيل الدراسي لدى عينة من المتفوقات عقليا بدولة الامارات، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة الخليج العربي، مملكة البحرين، 2005، ص 25.
- 19- عايدة صالح و آمنة زقوت: فاعلية برنامج مقترح باللعب لرفع مؤشرات مفهوم الذات لدى الأطفال بمحافظة خانينونس، مجلة جامعة الأزهر، المجلد 11، العدد 2، كلية التربية، جامعة الأزهر، غزة، فلسطين، 2009، ص 102.
- 20- عبد السلام السيد عبد الدائم: ادراك التلاميذ معاملة المعلم لمرتفعي ومنخفضي التحصيل الدراسي وعلاقته ببعض المتغيرات، رسالة دكتوراه، علم النفس التربوي، كلية التربية، جامعة الزقازيق، مصر 1993، ص 7.
- 21- قاسم أنس: المرجع السابق نفسه.
- 22- مهند عبد سليم عبد العلي: مفهوم الذات وأثر بعض المتغيرات الديمغرافية وعلاقته بظاهرة الاحتراق النفسي لدى معلمي المرحلة الثانوية الحكومية في محافظتي جنين ونابلس، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2003، ص 35.
- 23- محمد ممدوح عبد السلام الخالق: مفهوم الذات واستراتيجيات تعديل السلوك عن طريق ممارسة التربية البدنية والرياضية، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة المنصورة، دس، ص 12.
- 24- قاسم أنس: المرجع نفسه.
- 25- مهند عبد سليم عبد العلي: مرجع سابق، ص 36، 35.
- 26- أمينة بريمكو: مفهوم الذات والتكيف الاجتماعي، موقع جريدة الاتحاد، <http://www.alittihad.com> تاريخ الزيارة، 2014/07/22.
- 27- مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي "مدخل إلى سيكولوجية الانسان المقهور"، ط9، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2005، ص 127.
- 28- مصطفى حجازي، المرجع نفسه، 128.
- 29- <http://oubida-wordpress.com/tag> 2014/07/16